الأسماء المتعلقة بصفة مخالفته تعالى للحوادث

بعد أن ذكرنا الأسماءَ الحسنى المتعلّقة بصفة قِيامه بذاته سبحانه وتعالى، ننتقل للحديث، عن مجموعةٍ مِن الأسماء الحسنى تتعلق بصفة أخرى من صفات الكمال لله تعالى، وهي مخالفته تعالى لمخلوقاته الحادثة، أي عدم مماثلته جلّ جلاله لشيء منها، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهي (السلام، القُدُّوس، الواجِد).

صفة مخالفته تعالى لمخلوقاته: فلا نَظِيرَ ولا شَبِيهَ ولا مَثِيلَ له تعالى، و(**النظيرُ**) هو المساوي في أغلب الوُجُوهِ. و(**الشَّبيهُ**) هو المُسَاوِي في بعض الوُجوه. و(**المثيلُ**) هو المُسَاوِي في جميع الوُجوه. فاللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11].

فاللَّهُ ليس بِجِسْم يأخذ حَيِّزاً مِن الفراغ، أو صِفَةٍ تحتاج إلى موصوفٍ، ولا تقبلُ ذاتُه الانقسامَ والتعدُّد، ولا تتركبُ مِن أَجْزاء كما هو شأن جميع المخلوقات؛ لذلك فهو مُنَزَّهٌ عما تَسْتَلْزِمُه هٰذه الصفات أيضاً من مختلف الأحوال والعَوَارِض النفسيَّة والجسمِيّة التي تصيبُ الإنسان وغيرِه من الكائنات الأخرى.

فلا يمكن إذن أن يكونَ لِلْخَالِقِ سبحانَه زَوْجَةٌ أو وَلَدٌ، أو يكون بحاجَةٍ إلى طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، أو نَوْمٍ أو مَكانٍ يُوجَدُ فيه، أَوْ زَمَانٍ يَجْرِي عليه.

فهو مخالِفٌ سُبْحَانه لمخلوقاتِه مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولا يُماثِلُهُ شيءٌ ولا يُماثِلُ شيئاً، وذاتُهُ سُبْحَانه فَوْقَ أن تُدْرَك، وفَوْقَ أَنْ تُحَدَّ، و (كلُّ ما خَطَرَ بِبَالِكَ فَاللَّهُ بِخِلَافِ ذلك).

فهو الغنيّ بذاتِهِ وصفاتِه، الذي لا يحتاجُ إلى شيء، والكامِلُ في قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، الذي يَفْعَلُ ما يشاءُ ويختارُ، والذي يَرجِعُ إلى قُدْرَتِهِ وحْدَهُ فِعْلُ كلِّ شيء، وخَلْقُ كلِّ شَيْءٍ وتقديرُه.

فهو سُبْحانه لو لم يكن مخالِفاً للحوادث لكان مُمَاثِلاً لها، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثاً مخلوقاً بعد أن لم يكن، ولاحْتاج إلى مَن يُوجدُه، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وقد ثبت بالدليل القاطِع قِدَمُهُ، وأنه مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ وغيرُ مُحتاج إلى مَنْ يُوجِدُه، فثبت أنه مُخالِفٌ لمخلوقاته.

والأُلوهِيَّةُ تقتضي الكمالَ المُطْلَق، والبُعْدَ عن النقائِص، ومِن أَبْرز مظاهر النقص ما تَتَّصِفُ به المخلوقات من الصِفات، كالتغيّرِ والحركةِ، والزيادةِ والنقصانِ، والجمعِ والتَفرِيقِ والتناكُحِ والتناسُلِ، والضعفِ والعَجْزِ، والحاجَةِ إلى المُوجِد والمُخصِّص، والحاجة إلَى الأكلِ والشُرب والنوم أو غير ذلك مما تحتاجه المخلوقات الضعيفة العاجزة مِن المظاهر التي هي ثمرة عجزها وضعفها، تعالى اللَّه عن ذلك؛ لأن له الكمال المطلق.

فثبتَ أنّ اللَّهَ تعالى مخالفٌ لمخلوقاته، وأنه لا يشبه شيئاً منها، لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهٰذا هو التنزيه الذي أرسل اللَّهُ به جميع رُسُلِهِ إلى خلقه ليصحّحوا عندهم النظرة إلى الإلٰه؛ لأنّ الناسَ كان ينحرف عندهم مفهوم الألوهية الصحيح بين فَيْنَةٍ وأخرى وجيلٍ وجيل، بسبب إعمال عقولهم وخيالاتهم وأوهامهم في تَصوُّر الإلٰه، فمنهم من جَسَّده في صَنَم، وظنّ أن اللَّه يحلّ فيه فعبده، ومنهم من جسّده في شخص، ومنهم من نسب له الزوجة والولد، ومنهم من شبّهه بخلقه، وظن أنه يأكل ويشرب، فقدّم له القرابين... إلى غير ذلك من الديانات والمذاهب المنتشرة في الأرض، والتي لا تزال بقاياها إلى الآن، فأرسل الله رسله إلى خلقه ليبيّنوا لهم أن الخالق لا يشبه مخلوقاته في شيء، وأنّ له الكمال المطلق وحده، وأنه منزّه عن النقص.

82 ــ السَّلاَمُ

معنى السلام

هو الذي سَلِمَ مِن كلّ عَيْبٍ في ذاته وصفاته وأفعاله، وبَرِيءَ مِن كلّ آفةٍ ونَقْصٍ يَلْحَقُ بالمخلوقين. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]، وقد ورد هٰذا الاسم في موضِعٍ واحِدٍ مِنَ القرآن

الكريم، هو هٰذا المذكور. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي أخرجه الإمامان الترمذي، والنسائي في «سننهما»، والإمام البيهقي في كتاب «الدعوات»، عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامِد الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (السلامُ هو الذي تَسْلَمُ ذاتُه عن العَيْبِ، وصِفاتُه عن النقص، وأفعاله عن الشّرّ، حتى إذا كان كذلك، لم يكن في الوُجُودِ سَلامَةٌ، إلّا وكانت مُعْزِيَّةً إليه، صادِرَةً عنه.

وقد فَهِمْتَ أن أفعاله تعالى سالِمَةٌ عن الشَّرِّ، أَعْنِي الشَّرَّ المُطْلَقَ المُرادَ لذاته، لا لِخَيْرٍ حاصِل في ضمنه أعظم منه. وليس في الوُجود شَرٌّ بهٰذه الصِفَةِ كما سَبَقَ الإيماء إليه.

وكلُّ عَبْدٍ سَلِمَ قَلْبُهُ عَنِ الغِشّ والحِقْدِ والحَسَدِ وإرادة الشَّرِّ، وسَلِمَتْ جوارِحُهُ عن الآثار والمحظوظات، وسَلِمَت صِفاتُه عن الانتكاس والانعكاس فهو الذي يأتي بَقَلْبٍ سَليم. وهو السليم مِن العبادِ، القريبُ في وصفه من السَلامِ المُطْلَق الحقّ الذي لا مثنويَّة في صفاته.

وأعني بالانتكاس في صفاتِه: أن يكونَ عقلُه أسِيرَ شَهْوَتِهِ وغَضَبِه، إذْ الحقُّ عكسُه، وهو أن تكونَ الشهوَةُ والغَضَبُ أسِيرَ العقل وطَوْعَه، فإذا انعكس فقد انتكس، ولا سلامة حيث يصيرُ الأميرُ مَأمُوراً، والمَلِكُ عَبْداً.

ولن يوصَفَ بالسلام والإسلام، إلّا مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ، فكيفَ يُوصَفُ به مَن لم يَسْلَمْ هُوَ مِن نفسِهِ؟!

ويقولُ الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسْماءِ اللَّهِ تعالى: السلامُ، قِيلَ: معناهُ سَلَامَتُهُ مِمّا يَلْحَقُ الخَلْقَ مِن العَيْبِ والفَناءِ. والسَلامُ في الأَصْلِ: السلامَةُ. يُقالُ: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلَامَةً وسلاماً، ومنه قيل للجنَّة: دارُ السلام؛ لأنها دارُ السلامَة من الآفات.

ومنه حديث التسليم: «**قل السلامُ عليك، فإن عليكَ السلام تحيَّةُ الموتى**»، والتَّسْلِيم مُشتَقٌّ من (**السَّلام**) اسم اللَّهِ تعالى لسَلامَتِهِ من العَيْبِ والنقص. وقيل: معناه أن الله مُطَّلعٌ عليكم فلا تَغْفُلوا. وقيل: معناه اسمُ السلام عليكَ، أي اسمُ اللَّهِ عليك، إذْ كان اسمُ اللَّهِ على الأعمالِ تَوَقُّعاً لاجتماع مَعانِي الخيرات فيه، وانتِفاءِ عَوارِض الفَسادِ عنه. وقيل: معناهُ سَلِمْتَ مِنِّي فاجْعَلْنِي أَسْلمُ مِنكَ، مِنَ السَّلامَةِ بمعنى السلام).

83 ــ القُدُّوس

معناه

مِنْ أَبْنِيَة المُبالَغة النادِرَة، على وزن «فَعُّول»، وهو مَأْخُوذٌ مِن القُدْسِ، أي الطهارَة. فَمَعْنَى القُدُّوسِ: الطاهرُ منَ العُيُوبِ، المُنَزَّهُ عن الأَنْدَادِ والأولادِ، وكلِّ النقائِصِ التي لا تليقُ بكمال أُلُوهِيَّته. قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]. وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في موضِعَيْن من القرآنِ الكريم، هٰذا الأول، والثاني قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: 1]. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِدُ الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (القُدُّوسُ هو المُنَزَّه عن كلِّ وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ، أو يَتَصَوَّرُهُ الخَيالُ، أو يَسْبِقُ إليه وَهَمٌ، أو يَخْتَلِجُ به ضميرٌ أو يقضي به تفكيرٌ.

ولستُ أقولُ: مُنَزَّهٌ عن العُيُوبِ والنقائِص، فإنَّ ذِكْرَ ذلك يَكادُ يَقْربُ من تَرْكِ الأَدَبِ، فليس من الأدب أن يَقولَ القائِلُ: مَلِكُ البَلَدِ لَيْسَ بِحائِكٍ ولا حجّام، فإن نَفْيَ الوُجُودِ يكادُ يُوهِمُ إمْكانَ الوُجُودِ، وفي ذلك الإيهامِ نَقْصٌ.

بل أقولُ: القُدُّوسُ هو المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مِن أوصافِ الكَمالِ، الذي يَظُنُّهُ أكثرَ الخَلْقِ؛ لأَنَّهم أولاً نظروا إلى أنفُسِهم، وعَرَفُوا صِفاتَهُم، وأدرَكوا

انقسامها إلى ما هو كمالٌ، ولكنَّه في حَقِّهم، مثلُ: عِلْمِهم، وقُدْرَتِهم، وسَمْعِهم، وبَصَرِهم، وكَلامِهم، وَإرادَتِهم، واختيارِهم، ووضعوا هٰذه الألفاظ بإزاءِ هٰذه المعاني، وقالوا: إنّ هٰذه الأسماء كمالٌ، وإلى ما هو نَقْصٌ في حَقِّهم مِثلَ: جَهْلِهم، وعَجْزِهم، وعَماهُم، وصَمَمِهم، وخَرَسِهم، فوَضَعُوا بإزاءِ هٰذه المعاني هذه الألفاظَ، ثم كان غايَتُهم في الثناءِ على الله تعالى، ووَصْفِهِ أنْ وَصَفُوهُ بما هو أَوْصَافُ كَمالِهِم مِن: عِلْمٍ وقُدْرَةٍ، وسَمْعٍ، وبَصرٍ، وكلامٍ، وأَنْ نَفَوْا عنه أوصاف نَقْصِهِم.

وهُوَ مُنَزَّهٌ عن أوصاف كمالِهِمْ، كما أنه مُنزَّهٌ عن أوصاف نقصهم، بَلْ كلُّ صِفَةٍ تُتَصَوَّرُ للخلق فهو مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عنها وعمّا يُشْبِهها ويُماثِلُها. ولولا وُرودُ الرُّخْصَةِ والأَدَبِ بإطْلاقِها لم يَجُزْ إطلاقُ أكثرها.

وقُدْسُ العبد: في أن يُنزِّهَ إرادته وَعِلْمَهُ.

وأما عِلْمُه، فينَزِّهُه عن المُتَخَيَّلاتِ والمَحْسُوساتِ والمَوْهُوماتِ، وكلِّ ما يُشارِكُ فيه البهائِمَ من الإدراكات. بَل يكون تَرَدُّدُ نَظَرِهِ، وتَطْوَافُ عِلْمِهِ حَوْلَ الأُمُورِ الأَزَلِيَّة المُنَزَّهَةِ عن أن تَقْرُب فَتُدْرَكَ بالحِسّ، أو تَبْعُدَ فَتَغِيبَ عَنِ الحِسِّ بَلْ يَصيرُ مُتجَرِّداً في نفسِهِ عن المحسوسات والمتخيّلات كلِّها، ويقتني مِن العُلوم ما لو سُلِبَ آلةَ حسِّه وتَخَيُّلِهِ بَقِيَ رَيَّانَ بالعُلوم الشَريفَةِ الكُلِّيَةِ الإلٰهيَّة المُتَعَلِّقَةِ بالمَعْلُوماتِ الأَزَلِيَّةِ الأَبَدِيَّةِ، دونَ الشخصيّات المُتَغَيِّرَةِ المُسْتَحِيلَةِ.

وأَمّا إرادَتُه: فَيُنَزِّهُها عَنْ أَنْ تَدُورَ حَوْلَ الحُظُوظِ البَشَرِيَّةِ التي تَرْجِعُ إلى لَذَّةِ الشَهْوَةِ والغَضَبِ، ومُتْعَةِ الطعام، والمَنْكَحِ، والمَلْبَسِ، والمَلْمَسِ، والمَنْظَرِ وما لا يَصِلُ إليه مِنَ اللَّذّاتِ إلا بواسِطَةِ الحِسِّ والقَلْبِ، بل لا يُريدُ إلّا اللَّهَ ولا يَبْقَى له حَظٌّ إلّا في اللَّهِ، ولا يكونُ له شَوْقٌ إلّا إلى لِقاءِ اللَّهِ، ولا فَرَحٌ إلّا بالقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَلَوْ عُرِضَتْ عليهِ الجنَّةُ وما فيها مِنَ النَعيمِ لم يَلْفِتْ هِمَّتَهُ إليها، ولم يَقْنَعْ مِنَ الدارِ إلّا بربِّ الدّارِ.

وعلى الجُملَةِ، الإدراكاتُ الحِسِّيَّةُ والخياليَّةُ تشارك البَهائِمُ فيها، فَيَنْبَغِي أن يَتَرَقَّى عنها إلى ما هو مِنْ خَوَاصِّ الإنسانية، والحُظُوظُ البَشَرِيَّةُ الشهوانيَّةُ تتزاحَمُ البهائِمُ أيضاً فيها، فينبغي أن يَتَنَزَّهَ عنها.

فَجَلالَةُ المُرِيدِ على قَدْرِ جَلالَةِ مُرادِه، ومَن كانت هِمَّتُهُ ما يُدْخِل في بَطْنِهِ، فقيمته ما يُخْرِجُ منه. ومَن لم يكن له هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ فَدَرَجَتُهُ على قَدْرِ هِمَّتِهِ، ومَن رَقِيَ عِلْمُهُ عَنْ دَرَجَةِ المَحْسُوسَاتِ والمُتَخَيَّلاتِ، أو قَدَّسَ إرادَتَه عَنْ مُقتضى الشهوات، فقد نزل بُحْبُوحَةَ حَظِيرَة القُدْس). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى القُدُّوس هو الطاهِرُ المُنَزَّهُ عَنِ العُيُوبِ، و«فُعُّولُ» مِن أبْنِيَةِ المُبالَغَة، وقد تُفْتَحُ القافُ فيُقال: قَدُّوس، وليس بالكثير المُسْتَعْمَل، ولم يَجِئْ منه إلّا قُدُّوس وسُبُّوح).

ومنه الحديث الذي أخرجه القُضَاعِيُّ في «مسند الشهاب» الحديث (1151) و(1152): «**إنَّ رُوحَ القُدْسِ نفخ في رَوْعِي أن نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حتى تَسْتَوْفِيَ أجَلَها**» ـ يعني به جبريلَ عليه السلام ـ لأنَّهُ خُلِقَ مِنْ طَهارَةٍ.

ومنه «الأرض المُقَدَّسَة» قيل: هي الشامُ وفِلَسْطِينُ، وسُمِّي «بَيْتُ المَقْدِس»؛ لأنه المَوْضِعُ الذي يُتَقَدَّسُ فيه مِنَ الذُّنُوبِ، ويُقالُ: بَيْتُ المَقْدِس، والبَيْتُ المُقَدَّسُ، وبَيْتُ القُدْسِ)، حَرَّرَهُ اللَّهُ مِن أيدي الصهاينة الذين دَنَّسُوه.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة: 1]، يُخْبِرُ تعالى أنّه يُسَبِّح له ما في السمٰوات وما في الأرض، أي مِن جميع المخلوقات ناطِقها وجامِدِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]، ثم قال تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾، أي هو مالِكُ السمٰوات والأرض المُتَصَرِّف فيهما بحُكْمِهِ وهو المُقَدَّسُ، أي المُنَزَّهُ عن النقائِص، الموصوف بصفاتِ الكمال، العَزيز الحكيم.

84 ــ الوَاجِد

معناه

هو الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن

الكريم، وإنَّما هو مُجْمَعٌ عليه، كما ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في سننهما، والإمام البيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال الأئمة في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الوَاجِدُ هو الذي لا يَعوزه شيء، وهو في مقابلة الفاقِدِ، ولعلَّ مَن فاته ما لا حاجَة به إلى وُجودِهِ، لا يُسَمَّى فاقِداً. والذي يحضُرُه ما لا تَعَلُّقَ له بذاته، ولا بكمال ذاته لا يُسمَّى واجداً، بل الواجِد ما لا يُعْوزُه شيء، مما لا بُدَّ له منه.

وكلُّ ما لا بُدَّ منه في صفاتِ الإلٰهيّة وكمالها فهو مَوْجُودٌ لِلَّهِ تعالى. فهو بهٰذا الاعتبار واجِدٌ. وهو الواجد المُطْلَق، ومَن عَداهُ إن كان واجداً لشيء من صفات الكمال وأسبابه، فهو فاقدٌ لأشياء، فلا يكون واجداً إلا بالإضافة). انتهى كلامُ الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الواجِدُ، هو الغنِيُّ الذي لا يَفْتَقِرُ. وقد وَجَد يَجِدُ جِدَةً: أي استغنى غِنًى لا فَقْرَ بَعْدَهُ).

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريّ في كتاب الاستِقْراضِ من «صحيحه»، باب: لصاحب الحق مقال تعليقاً: «**لَيُّ الواجِد يُحِلُّ عُقوبَتَهُ وعِرْضَهُ**». أي إن مُمَاطَلةَ الغني القادِرِ على قَضاءِ دَيْنِهِ تُحِلُّ عُقوبَتَه.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 28، 29].

أمر اللَّهُ تعالى عِبادَه المُؤمنين الطاهرين دِيناً وذاتاً بِنَفْيِ المُشْرِكين، الذينَ هم نَجَسٌ ديناً عن المسْجد الحَرام، وأَنْ لا يَقْرَبُوهُ بعد نُزول هٰذه الآية، وكان نزولها في سنة تِسْع مِن الهجرة، ولَهٰذا بَعَثَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيّاً صُحْبَةَ أبي بكر ﷺ عامَئذٍ وأمَرَهُ أَن يُنادِي في المُشْرِكين: أن لا يَحُجَّ بَعْدَ هٰذا العام مُشرِكٌ ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانُ، فأتمَّ اللَّهُ ذلكَ وَحكَم به شَرْعاً وقَدَراً. قال الإمام أبو عمرو الأَوْزَاعِيُّ: كتَب عُمَرُ بنُ عبد العزيز ﷺ: أنِ امْنَعُوا اليَهُودَ والنصارَى مِن دُخولِ مَسَاجِد المسلمين وأَتْبَعَ نَهْيَهُ قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

ودَلَّت هٰذه الآيةُ الكريمةُ على نجاسَةِ المُشْرِكِ، كما وَرَدَ في «الصحيح»: قال رسول الله ﷺ: «**المُؤمنُ لا يَنْجُسُ**». وقال أَشْعَثُ عن الحَسَنِ البصري ﷺ: «**مَنْ صافَحَهُمْ**» ـ أي المشركين ـ «**فَلْيَتَوَضَّأْ**». وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال محمد بن إسحاق وذلك أنّ الناسَ قالوا: لتُقْطَعَنَّ عنّا الأسواقُ، ولتُهْلَكَنَّ التِجارَةُ، وليذهَبَنَّ عنّا ما كنّا نُصِيبُ فيها من المرافق والمَصالِح إذا مَنَعْنا المشركين مِن دُخول الحرم فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ـ أي فقراً ـ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن وَجْهٍ غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾، أي هٰذا عِوَضٌ ما تَخوفتم مِنْ قَطْعِ تِلكَ الأَسْوَاقِ، فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ مِمّا قَطَعَ أَمْرَ الشِرْكِ ما أعطاهم من أعْنَاقِ أهلِ الكتابِ مِن الجِزْيَةِ، وهكذا رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهِد، وعِكرِمَة، وسعيدِ بن جُبَيْر، وقَتادَةَ، والضحّاكِ وغيرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي بما يُصْلِحُكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمُرُ به وينهي عنه؛ لأنه الكامِلُ في أفعاله وأقوالِهِ، العادِلُ في خلْقِهِ وأَمْرِهِ تبارك وتعالى، ولهذا عوَّضهم عن تلك المكاسِبِ بأموال الجزْيَةِ التي يأخذونها مِن أهل الذِمَّة.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، يعني هم في نَفْس الأَمْرِ لما كَفَرُوا بمحمّدٍ ﷺ، لم يَبْقَ لَهُم إيمانٌ صَحِيحٌ بأحَدِ الرُسُلِ، ولا بما جاءوا به، وإنّما يَتَّبِعُون آراءَهم وأهواءَهم وآباءَهم فِيما هُم فيه، لا لأنّه شرْعُ اللَّهِ ودينه؛ لأنَّهُمْ لو كانوا مُؤمِنِينَ بما بأيْدِيهم إيماناً صحيحاً لَقادَهُمْ ذلك إلى الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ جميعَ الأنبياء بَشَّرُوا به وأمَرُوا باتّباعه، فلما جاء كفروا به، وهو أشرفُ الرُسُلِ عَلِمَ أنَّهم ليسوا مُتَمَسِّكين بِشَرْعِ الأنبياءِ الأقدمين؛ لأنه من الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بِسَيِّدِهم وأفْضَلِهم وخاتِمهم وأكْمَلِهم؛ ولهٰذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وكان ذلك في سنة تِسْعٍ، ولهٰذا تَجَهَّزَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لقتال الروم ودعا الناسَ إلى ذلك، وأظهَرَهُ لهم، وبَعَثَ إلى أحْياءِ العَرَبِ حَوْلَ المدينة فَنَدَبَهُم فأَوْعَبُوا معه، واجتمع مِن المُقاتِلَةِ نحوٌ من ثلاثينَ ألفاً، تخلَّفَ بعضُ الناسِ مِن أهلِ المدينة ومَن حَوْلَها مِن المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب ووقتِ قَيْظٍ وحَرٍّ، وخرج رسولُ اللَّهِ ﷺ يُريدُ الشامَ لِقتال الروم فَبَلَغَ تبوكَ فَنَزَلَ بها، وأقام بها قريباً من عِشرين يوماً. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾، أي إن لم يُسْلِمُوا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عَنْ قَهْرٍ لهم وغَلَبَة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي ذليلون حَقِيرُون مُهابُون، فلهٰذا لا يجوز إعزاز أهل الذمَّة ولا رَفعُهم على المسلمين، بل هم أذِلاء صَغَرَةٌ أشْقِيَاءُ، ولهٰذا اشترط عليهم أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الشروط المعروفة «بالشروط العمرية».

النهي عن الخوض في المُتشابَه من الصفات

يَتَعَلَّق بصِفَةِ مخالفة الله تعالى لمخلوقاته أمر هامٌ في العقيدة الإسلامية هو: المتشابهُ من الصفات التي توهِم تشبيه اللَّه بخلقه، وقد كان هٰذا الموضوع مثار جدل كبير بين الفِرَق قديماً وحديثاً، فلا بُدَّ مِن بيان الحق فيه.

أولاً: المتشابه من الصفات

وردت في القرآن الكريم والسنّة الشريفة آيات وأحاديث ثابتة عن

رسول الله ﷺ، تُوهِمُ بظاهر ألفاظها مشابَهَة اللَّهِ لِخَلْقِهِ في بعض صفاتهم، كالجِهَةِ، والجسمية، والجوارح، والأعضاء، والتَحَيُّزِ في المكانِ، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 22]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: 64]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: 5].

وكقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب القدر، الباب (3)، الحديث (17): «**إنَّ قُلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بَيْن أَصْبُعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمٰن يُقلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ**»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب الجَنَّة وصِفَتها، الباب (11)، الحديث (28): «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه أيضاً في كتاب الجنة، الباب (13) الحديث (37): «**لا تَزالُ جَهَنَّمُ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيد حتّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ تبارَكَ وتعالى قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطِ قَطِ**» ـ أي كَفَى كَفَى ـ **وعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بعضها إلى بعض**»، وقوله أيضاً في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب الدعوات، الباب (١٣)، الحديث (٥٩٦٢): «**يَنْزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حِينَ يَبْقَى ثلثُ الليل الآخِر يَقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأستجيبُ له، مَن يَسْأَلُني فأُعطِيهِ، مَن يستغفرني فأغفرُ له**»... إلى غير ذلك من الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحات التي جاءت فيها صفاتٌ للَّهِ تعالى تدل بظاهِرها على مشابهة المخلوقات.

وقد حاوَلَ الكثير الخوض في هٰذه المتشابهات، وتعدّدت آراؤهم فلم يَصِلُوا إلى معرفة كُنْهِ حقيقتها؛ لأنهم لا يملكون وسائل الخوض فيها، وشأن الألوهية عزيز المنال، وهو أسمى مما تتصوره الأذهان الكليلة والعقولُ القاصِرَةُ. يقولُ اللَّهُ ﷻ في كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7].

فَبَيَّنَ تعالى أن في كتابه الكريم: (**آياتٌ مُحْكَماتٌ**) واضِحَةُ المَعْنَى، صَرِيحَةُ

اللفظ، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 4].

(وآيات مُتَشابِهات)، وهي التي لا يَتَّضِح المَعْنَى المُراد منها تماماً، وتوهِمُ بظاهِرِها ما قامَتِ الأَدِلَّةُ على نَفْيِهِ.

وعَلى المُؤمِن اتّباع **(الآيات المُحْكمات)** وبناء عقيدته في اللَّهِ بموجبها، ورَدّ **(الآيات المتشابهاتِ)** إليها من حيث فَهْمِها والوُقوفِ على المعنى المراد منها، والإيمان بها كما جاءت، وعدم الخوض فيها كما أمر الله، وتوكيل علمها لله، دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل، مع تنزيه الله تعالى ونسبة الكمال له، وألاّ يُطيلَ لغَوْص في معناها، ولا يتتبعُها فيجمعها ليفتن الناس بالبحث فيها. وهذا كان موقف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم منها حين نزولها، وموقف الأئمة لأعلام من بعدهم.

وعلى ذلك فكلُّ ما قُطِعَ بثبوته في كتاب اللَّهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، ممّا وصف اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وأَسْنَدَه إلى ذاته، يَجِبُ الإيمانُ به بدون تشبيه اللَّهِ بِخَلْقِهِ، ولا تجسيمه ولا تَعْطيله.

ونقصِدُ (بالتعطيل): نَفْيَ مدلولات الألفاظ مُطلَقاً عن الله تبارك وتعالى، وهو مَذْهَب (الجَهْمِيَّة) الذين يُعَطِّلون صِفاتِ اللَّهِ تعالى، فهو عندهم لا يتكلَّم ولا يسمع ولا يُبْصِر... الخ؛ لأن ذلك كما يَتوَهَّمُون لا يكون إلّا بِجارِحَةٍ وحاسَّة، والجوارحُ والحَواسُّ يجب أن تُنْفى عنه سبحانه، فيُعَطِّلون صفاته مِن حيثُ يتظاهَرون بتقديسه. وهو مَذْهَبٌ باطلٌ، لا يَسُوغُه عَقْلٌ ولا مَنْطِق، إذْ الصفاتُ قَسِيمُ الذاتِ ومُلازِمَةٌ لها لا تنفكُّ عنها، فمن عَطّل الصِفَاتِ فقد نَفَيَ الذات.

وكذلك مَن شَبَّهَ فقد جَسَّمَ الذات، لذلك كان السلفُ الصالح يقولونَ: (المُعَطِّلُ يَعْبُد عَدَماً، والمُشَبِّهُ يَعْبُد صَنَماً)... لذلك وجب الإيمان باللَّهِ تعالى بدون تشبيه ولا تجسيم، ولا تعطيل تنفيذاً لأمْرِ اللَّهِ ﷻ وانسِجاماً مع تحذيره من الخَوْض في تأويلِ **(المُتشابَه)** مع ترك **(المُحْكَم)** الواضح. وقد اتّفق المسلمون سَلَفِهم وخَلَفِهم على ذلك، وعلى تنزيه اللَّهِ تعالى عما يقتضيه ظاهِر تلكَ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من الصفات المنافِيَةِ لكمال اللَّهِ وأُلوهِيَّته، ولكن

اختلفت مناهِجُهم في التنزيه والتمجيد على مذهَبْين:

١ ـ **مذهب السَلَف**: أما السَلَفُ وهم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري، أي قبل نشوء الفِرَق والمذاهب الكلامية، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**خير القُرونِ قرني، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل**»، فسلكوا مذهب التفويض والتسليم بهٰذه المتشابهات بأنها من عند الله، مع عدم التعرّض لبيان المعنى المراد منه، ويكِلُون إلى اللَّهِ تعالى العلمَ بمعانيها. سُئِلت السيدة أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]، فقالت: «الكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاستواء غيْرُ مجهولٍ، والإقرارُ به مِن الإيمان، والجُحُودُ به كفرٌ»، ورُوِيَ نحوُ ذلك عن الإمام مالك بن أنس. وفي هٰذا المفهوم عاش الجيلُ الأول من المسلمين، لا يسألون كيف يد الله وعينه، وقدرته، وعلمه، واستواؤه ونزوله ومجيئه؟ فلقد هُدُوا بفِطْرَتهم السليمة إلى عدم الخوض في المتشابه، وتوكيل العلم به لله، مع تنزيهه وتقديسه ونسبة الكمال له.

٢ ـ **مذهب الخلف** وهم أهل السُنَّة والجماعة الذي جاءوا بعد نهاية القرن الثالث الهجري فذهبوا إلى تأويل (**المتشابه**)، بما يتَّفِقُ مع النصوص (**المحكمة**) التي تنزّهُ الله عن التشبيه، وحملوا الألفاظ على معانٍ مَجازِيَّة تسوغُ في اللغة العربية وتليق بجلال الله. وحُجَّتُهم في التأويل أنّ المطلوبَ صَرْفُ اللفظِ، عن مَقامِ الإهمال الذي يوجِبُ الحَيْرَةَ، وما دام في الإمكان حمل اللفظ (**المتشابه**) على معنى سليم دون معارضته لحكم (**المُحكَم**)، فالنظرُ قاضٍ بوجوبه، ففسَّروا على ذلك الاستواء بتسليط القوة والسُلطان، وفسَّروا اليَدَ بالقُوَّة والكرم، والعَيْنَ بالرِعَايَة، وفسَّروا قوله ﷺ: «**خلق اللَّهُ آدمَ على صورته**»، أي إن الله أوجده على الهيئة التي خلقه عليها والتي نعرفه بها، فلم يتطوَّر في النشأة من شكل إلى آخر، ولا تردَّد في الأرحامِ أطواراً كذرّيته، بل خلقه اللَّهُ رجُلاً كاملاً سَوِيّاً ابتداءً.

وهكذا اتفق السلف والخلف على تنزيه الله ﷻ عن مشابهته لخلقه، والحقيقة أن مذهب السلف كان الأفضل في عصره، ومذهب الخلف هو الأفضل في عصره وإلى زماننا هذا، بسبب نشوء المذاهب الفكرية والفلسفات العقلية التي لا تقنع بالتسليم.